ثم يقول تعالى : ﴿ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ ﴾ [طه] والظلم هنا غير الظلم فى قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ ﴾ [طه] فالظلم هنا من الإنسان لنفسه أو لغيره ، إنما ﴿ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ ﴾ [طه] أى : ظُلْماً يقع عليه ، بألاَّ يأخذ حقه على عمله ، بمعنى أننا لا نعاقبه على سيئة لم يعملها ، ولا نضيع عليه ثواب حسنة عملها ؛ لأن الحق سبحانه لا يظلم الناس مثقال ذرة .

﴿ وَلا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ ﴾ [طه] الهَضْم يعنى النقصان ، فلا ننقصه أجره وثوابه ، ومنه هضم الطعام ، فكمية الطعام التى ناكلها تُهضَم ثم تُمتصّ ، وتتحول إلى سائل دموى ، فتأخذ حَيِّزاً أقل ، ومنه نقول : فلان مهضوم الحق . يعنى : كان له حق فلم يأخذه .

لكن ، ما فائدة عطف (هَضْماً) على (ظُلْماً) فنَفْى الظلم نَفْى للهضم ؟ نقول : لأنه مرة يُبطل الثواب نهائياً ، ومرة يُقلِّل الجزاء على الثواب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ(١) لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾

(كَذَلِكَ) أى : كالإنزال الذى أنزلناه إلى الأمم السابقة ، فكما أرسلنا إليهم رُسُلاً أرسلنا إلى الأمم المعاصرة لك رسلاً ، إلا أنَّ فارق الرسالات أنهم بُعِثُوا لزمان محدود ، فى مكان محدود ، وبُعِثْتَ

(١) أى : بيّنا ما فيه من التخويف والتهديد والثواب والعقاب . [قاله القرطبى فى تفسيره ٦/٤٤٢٥] .

للناس كافّة ، وللزمان كافة إلى أنْ تقوم الساعة .

ونفهم من كلمة ﴿أَنزَلْنَاهُ .. (١١٣)﴾ [طه] أن المُنزَّل أعلى من المُنزَّل عليه ، فالإنزال من شيء عالٍ ، وكأن الحق - تبارك وتعالى - يلفت أنظارنا ويُصعِّد هممنا ، فيقول : لا تهبطوا إلى مستوى تشريع الأرض ؛ لأنه يُقنِّن للحاضر ويجهل المستقبل ، ويتحكم فيه الهوى فتغيب عنه أشياء فيحتاج إلى استدراك .

لذلك ، حين ينادينا إلى منهجه العلوى يقول : ﴿قُلْ تَعَالَوْا .. (١٥١)﴾ [الأنعام] يعنى : اعلوا وخُذُوا منهجكم من أعلى ، لا من الأرض .

﴿قُرْآنًا .. (١١٣)﴾ [طه] يعنى : مقروء ، كما قال ﴿كِتَابًا .. (١٠)﴾ [الأنبياء] يعنى : مكتوب ، ليُحفظ فى الصدور وفى السطور . وقال ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا .. (١١٣)﴾ [طه] مع أن النبى ﷺ مُرْسَل إلى الناس كافة فى امتداد الزمان والمكان ، والقرآن نزل معجزة للجميع .

قالوا : لأنه ﷺ هو المباشر لهذه الأمة العربية التى ستستقبل أول دعوة له ، فلا بُدَّ أنْ تأتى المعجزة بلسانها ، كما أن معجزة القرآن ليستْ للعرب وحدهم ، إنما تحدٍّ للإنس والجن على امتداد الزمان والمكان .

كما قال سبحانه : ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ .. (٨٨)﴾ [الإسراء]

فالقرآن تحدٍّ لكل الأجناس : الروسى ، والأمريكى ، واليابانى ، والدنيا كلها ، ومعهم الجن أيضاً . لكن لماذا والجن أيضاً داخل فى مجال التحدى ؟

قالوا : لأن العرب قديماً كانوا يعتـقدون أن لكل شاعر أو خطيب مفوه شيطاناً يمدُّه ويُوحِى إليه ؛ لذلك أدخل الجن أيضاً فى هذا المجال .

وقد يقـول قائل : وكيف نتحـدَّى بالقرآن غير العـرب وهو بلسان عربى ، فهو حجة على العرب دون غيرهم ؟

نقول : وهل إعجاز القرآن من حـيث أسلوبه العربى وأدائه البيانى فقط ؟ لا ، فجوانب الإعجاز فى القرآن كثـيرة لا تختلف فيها اللغات ، فهل تختلف اللغات فى التقنين لخـير المجتمع ؟ ألم يأتِ القرآن بمنهج فى أمة بدوية أمية يغزو أكبر حضارتين معاصرتين له ، هما حضارة فارس فى الشرق ، وحضارة الروم فى الغرب ؟ ألم تكُنْ هذه الظاهرة جديرةً بالتأمل والبحث ؟

ثم الكونيات التى تحدَّث القرآن عنها منذ ما يزيد على أربعة عشر قرناً ، وما زال العلم الحديث يكتشفها الآن .

إذن : طبـيعى أن يأتى القـرآن عـربيـاً ؛ لأنه نزل على رسـول عربى ، وفى أمة عربية ، والحق سبحانه يقول : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ .. ④ ﴾ [إبراهيم]

فهم الذين يستقبلون الدعوة ، وينـفعلون لها ، ويقتنعون بها ، ثم ينساحون بها فى شتَّى بقاع الأرض ، ومن العجيب أنهم بدعوة القرآن أقنعوا الدنيا التى لا تعرف العربيـة ، أقنعوها بالمبادىء والمناهج التى جاء بها القرآن ؛ لأنها مبادىء ومناهج لا تختلف عليها اللغات .

ثم يقول تعالى ﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ .. ⑪③ ﴾ [طه] أى : حينما ينذر القـرآن بشىء يُصـرف هذا الإنذار على أوجـه مخـتلفـة ، ويُكرِّر الإنذار لينبه أهل الغفلة .

يعنى : لوَّنا فيه كل أساليب الوعد والوعيد ، فكل أسلوب يصادف هوى فى نفس أحد المستقبلين ، فخاطبنا الأهواء كلها بكل مستوياتها ، فالعالم والجاهل ومتوسط الفكر ، الكل يجد فى القرآن مَا يناسبه ؛ لأنه يُشرِّع للجميع ، للفيلسوف وللعامى ، فلا بُدَّ أنْ يكون فى القرآن تصريفٌ لكل ألوان الملكات ليقنع الجميع .

وفى القرآن وَعْد ووعيد ، فلكل منهما أهْل ، ومَنْ لم يَأْتِ بالإغراء بالخير يأتى بأن ينزعه بالقوة والجبروت ، كما قال الشاعر :

أَنَاةٌ فَإنْ لم تُغْنِ عَقَّبَ بعدهَا وَعِيداً
فَإِنْ لم يُغْن أغنَتْ عَزَائمهُ

وفى الأثر : « إن الله ليزع[1] بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » .

والإنذار والتخويف نعمة من الله ، كما ورد فى سورة الرحمن ، حيث يقول تعالى : ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١)﴾ [الرحمن] فهذه نعم من الله .

أما فى قوله : ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦)﴾ [الرحمن] فما النعمة فى النار والشُّواظ ؟

النعمة أن ينذرك الله بها ويحذرك منها ، قبل أنْ تقعَ فيها ، ويعظك بها وأنت ما زلتَ فى فترة المهلة والتدارك ، فلا يأخذك على غِرَّة ولا يتركك على غفلتك . كما تُحذِّر ولدك : إنْ أهملتَ دروسك

(١) الوزْع : كفُّ النفس عن هواها . ومعنى الأثر : أن من يكف عن ارتكاب العظائم مخافة السلطان أكثر ممن تكفه مخافة القرآن والله تعالى ، فمن يكفه السلطان عن المعاصى أكثر ممن يكفه القرآن بالأمر والنهى والإنذار . [لسان العرب ـ مادة : وزع] .

فسوف تفشل فى الامتحان فيحتقرك زملاؤك ، ويحدث لك كيت وكيت ، فلم يترك ولده على غَفْلته وإهماله ، إلى أنْ يداهمه الامتحان ويُفاجِئه الفشل ، أليستْ هذه نعمة ؟ أليستْ نصيحة مهمة ؟

والتصريف : يعنى التحويل والتغيير بأساليب شتَّى لتناسب استقبال الأمزجة المختلفة عند نزول القرآن لعلها تصادف وَعْياً واهتماماً ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (١١٣) ﴾ [طه]

﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ .. (١١٣) ﴾ [طه] الاتقاء عادة يكون للشر والمعاصى المهلكة ، أو يُحدث لهم الذكْر والشرف والرفعة بفعل الخيرات ، وهذا من ارتقاءات الطاعة .

ذلك لأن التكليف قسمان : قسم ينهاك عن معصية ، وقسم يأمرك بطاعة ، فينهاك عن شُرْب الخمر ، ويأمرك بالصلاة ، فهم يتقون الأول ، ويُحدث لهم ذكْراً يوصيهم بعمل الثانى . وما دام القرآن نازلاً من أعلى فلا بُدَّ أن يقول بعدها :

﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا (١١٤) ﴾

﴿ تَعَالَى .. (١١٤) ﴾ [طه] تنزَّه وارتفع عن كل ما يُشبه الحادث ، تعالى ذاتاً ، فليستْ هناك ذاتٌ كذاته ، وتعالى صفاتاً فليست هناك صفة كصفته ، فإنْ وُجدَتْ صفة فى الخَلْق تشبه صفة فى الخالق سبحانه ، فخُذْها فى ضوء ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى]

فالحق سبحانه لا يضنُّ على عبده أنْ يُسميه خالقاً إنْ أوجد شيئاً من عدم ، إنما لما تكلم عن خَلْقه سبحانه ، قال : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون]

فأنت خالق ، لكن ربَّك أحسنُ الخالقين ، فأنت خلقتَ من موجود أمَّا ربك عز وجل فقد خلق من العدم ، أنت خلقتَ شيئاً جامداً على حالة واحدة ، والله خلق خَلْقاً حيّاً نامياً ، يُحسُّ ويتحرك ويتكاثر ، وسبق أنْ مثَّلنا لذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ بصانع الأكواب الزجاجية من الرمال ، وأوضحنا الفرق بين خَلْق وخَلْق .

وقوله تعالى : ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ .. (١١٤)﴾ [طه] تلفتنا إلى ضرورة التطلع إلى أعلى فى التشريع ، فما الذى يُجبرك أنْ تأخذ تشريعاً من عبد مثلك ؟ ولماذا لا يأخذ هو تشريعك ؟ إذن : لا بُدَّ أن يكون المشرِّع أعلا من المشرَّع له .

ومن ألفاظ تنزيه الله التى لا تُقال إلا له سبحانه كلمة (سبحان الله) أسمعتَ بشراً يقولها لبشر ؟ وهناك كفرة وملاحدة ومنكرون للألوهية ومعاندون ، ومع ذلك لم يقُلْها أحد مَدْحاً فى أحد .

كذلك كلمة (تعالى وتبارك) لا تُقال إلا لله ، فنقول : (تباركت ربنا وتعاليت) أى : وحدك لا شريك لك .

فقوله : ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ .. (١١٤)﴾ [طه] علا قَدْره وارتفع التنزيه ارتفاعاً لا يوصل إليه ، أمَّا التعالى فى البشر فيما بينهم فأمْر ممقوتٌ ؛ أما تعالى الحق سبحانه فمن مصلحة الخلق ، وهذه اللفتة يُعَبِّر عنها أهل الريف ، يقولون (اللى ملوش كبير يشترى له كبير) ؛ لأن الكبير هو الذى سيأخذ بيد الضعيف ويدكّ طغيان القوى ، فإذا لم يكُنْ لنا كبير نختلف ونضيع .

إذن : من مصلحة الكون كله أنْ يكونَ الله متعالياً ، والحق ليس متعالياً علينا ، بل متعالٍ من أجلنا ولصالحنا ، فأىُّ مُتعالٍ أو جبار من

البشر عندما يعلم أن الله أعلى منه يندكّ جبروته وتعاليه ، وأىّ ضعيف يعلم أن له سنداً أعلى لا يناله أحد ، فيطمئن ويعيش آمناً وبذلك يحدث التوازن الاجتماعى بين الناس .

ونحن نحب عبوديتنا لله عز وجل ، وإنْ كانت العبودية كلمة بغيضة مكروهة حين تكون عبودية الخَلْق للخَلْق فيأخذ السيد خَيْر عبده ، إلا أن العبودية لله شرف وكرامة ؛ لأن العبد لله هو الذى يأخذ خَيْر سيده ، فأنا عبد لله وعبوديتى له لصالحى أنا ، ولن أزيد فى مُلْكه شيئاً ، ولن ينتفع من ورائى بشىء ؛ لأنه سبحانه زاول مُلْكه وزاول سلطانه فى الكون قبل أن يخلق الخَلْق ، فبقدرته وعظمته خلق ، وقبل أنْ توجد أنت أيها الإنسان الطاغى المتمرد أوجد لك الكون كله بما فيه .

فأنت بإيمانك لن تزيد شيئاً فى مُلْك الله ، كما جاء فى الحديث القدسى : « يا عبادى إنكم لن تملكوا نفعى فتنفعونى ، ولن تملكوا ضرى فتضرونى ... »[1] فأنا إنْ تصرَّفْتُ فيكم فلمصلحتكم ، لا يعود علىَّ من ذلك شىء .

وقوله تعالى : ﴿ الْمَلِكُ الْحَقُّ .. ﴿١١٤﴾ ﴾ [طه] لأن هناك ملوكاً كثيرين ، أثبتَ الله لهم المُلْك وسمَّاهم مُلُوكاً ، كما قال سبحانه ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [يوسف] وقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ .. ﴿٢٥٨﴾ ﴾ [البقرة]

إذن : فى الدنيا ملوك ، لكنهم ليسوا مُلوكاً بحق ، الملك بحق هو الله ؛ لأن ملوك الدنيا ملوك فى مُلْك موهوب لهم من الله ، فيمكن أن

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/١٥٤) ، ومسلم فى صحيحه (٢٥٧٧) ، وابن ماجة فى سننه (٤٢٥٧) من حديث أبى ذر رضى الله عنه .

يفوت مُلْكَه ، أو يفوته الملْكُ ، وأىُّ مُلْك هذا الذى لا يملكه صاحبه ؟ أىّ مُلْك هذا الذى يُسلب منك بانقلاب أو بطلقة رصاص ؟

إذن : الملك الحق هو الله ، وإن ملَّك بعض الخلق شئون بعض لمصلحتهم ، فهو سبحانه الذى يهَب الملْك ، وهو الذى ينزعه إن أراد : ﴿ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ .. (٢٦) ﴾ [آل عمران]

فالحق سبحانه له الملْك الحق ، ويهَبُ من مُلْكه لمَنْ يشاء ، لكن يظل الملك وما ملَكه فى قبضة الله ؛ لأنه سبحانه قيُّوم على خَلْقه لا يخرجَ أحد عن قيوميته .

وقد نسمع مَنْ يسبُّ الملوك والرؤساء ، ومَنْ يخوض فى حقهم ، وهو لا يدرى أن مُلْكهم من الله ، فهو سبحانه الذى ملَّكهم وفوَّضهم ، ولم يأخذ أحد منهم مُلْكاً رَغْماً عن الله ، فلا تعترض على اختيار الله واحترم مَنْ فوَّضه الله فى أمرك ، واعلم أن فى ذلك مصلحة البلاد والعباد ، ومَنْ يدريك لعلَّ الطاغية منهم يصبح غَداً واحداً من الرعية .

إذن : الحق سبحانه ملَّك بعض الناس أمْر بعض : هذا يتصرف فى هذا ، وهذا يملك هذا لتسير حركة الكون ، فإذا كانت القيامة ، قال عز وجل : ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر] هذا هو الملْك الحق .

ومن عظمته فى التعالى أنه يريحك هو سبحانه بعمله لك ، فيقول لك : نَمْ ملْءَ جفونك ، فأنا لا تأخذنى سِنَةَ ولا نوم ، نَمْ فلكَ رب قيوم قائمَ على أمرك يرعاك ويحرسك .

ومن معانى ﴿ الْمَلِكُ الْحَقُّ .. (١١٤) ﴾ [طه] أى : الثابت الذى لا يتغير ، وكُلُّ ظاهرة من ظواهر القوة فى الكون تتغير إلا قوة الحق

ـ تبارك وتعالى ـ لذلك يُلقى سبحـانه أوامره وهو واثق أنها ستُنفذ ؛ لأنه سبحانه ملكٌ حقّ ، بيده ناصية الأمور كلها ، فلو لم يكُنْ سبحانه كذلك ، فكيف يقول للشيء : كُنْ فيكون ؟ فلا يعصاه أحد ، ولا يخرج عن طَوْعه مخلوق ، فيقول له : كُنْ فلا يكون .

فالحق ـ تـبارك وتعالى ـ أنزل القـرآن عربيـاً ، وصرَّف فـيه من الوعيـد لعلهم يتقون أو يحـدث لهم ذكراً ؛ لأنه من حـقه أن يكون له ذلك ؛ لأنه ملك حق ليس له هـوى فيـما شـرع ؛ لذلك يجب أن تقـبل تشريعـه ، فلا يطعن فى القـوانين إلا أن تصدر عن هـوى ، فإنْ قنَّن رأسمالى أعطَى الامـتياز للرأسمالـيين ، وإنْ قنَّن فقير أعطى الامـتياز للفقراء ، والله عز وجل لا ينحاز لأحد على حساب أحد .

وأيضـاً يجب فى المقنِّن أن يكون عـالماً بمـستـجدَّات الأمـور فى المستقبل ، حـتى لا يستدرك أحد على قانون فيُغيِّـره كما يحدث معنا الآن ، وتضطرنا الأحـداث إلى تغيـير الـقانون ؛ لأننا سـاعة شـرعناه غابتْ عنا هذه الأحداث ، ولم نحتط لها ؛ لذلك لا استدراكَ على قانون السماء أبداً .

وطالما أن الحق سبحانه وتعالى هو ﴿ الْمَلِكُ الْحَقُّ .. (١١٤) ﴾ [طه] فلا بُدَّ أنْ يضمن للخلق أنْ يصلهم الكتاب والمنهج كما قاله سبحانه ، لا تغـييـر فـيه ؛ لـذلك قال عـز وجل : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر]

نحن الذين سنحفظه ؛ لأن البشر جُرِّبوا فى حفْظ مناهج السماء ، ولم يكونوا أمناء عليهـا ، فغيَّروا فى التـوراة وفى الإنجيل وفى الكتب المقدَّسة ، إما بأن يكتمـوا بعض ما أنزل الله ، وإما أنْ ينسُوا بعضه ،

والذى ذكروه لم يتركوه على حاله بل حرَّفوه . وإنْ قُبل منهم هذا كله فلا يُقبَل منهم أنْ يفترُوا على الله فيُؤلِّفون من عندهم ، ويقولون : ﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ..(٧٨)﴾ [آل عمران]

ذلك لأن الحفْظ للمنهج كان موكولاً للبشر تكليفاً ، والتكليف عُرْضَة لأنْ يُطَاع ، ولأن يُعْصَى ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ .. (٤٤)﴾ [المائدة]

أى : طلب منهم أن يحفظوها بهذا الأمر التكليفى ، فعَصَوْه نسياناً ، وكتماناً ، وتحريفاً ، وزيادة ؛ لذلك تولَّى الحق - تبارك وتعالى - حفْظ القرآن ؛ لأنه الكتاب الخاتم الذى لا استدراكَ عليه ، وضمن سبحانه للقرآن ألاَّ يُحرَّف بأىِّ وجه من أَوْجُه التحريف .

فاطمئنوا إلى أن القرآن كتاب الله الذى بين أيديكم هو كلام الله الذى جاء من علمه تعالى فى اللوح المحفوظ الذى قال عنه : ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ[1] (٧٨) لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ (٧٩)﴾ [الواقعة]

ثم نزل به الروح الأمين ، وهو مُؤتَمن عليه لم يتصرَّف فيه ، ثم نزل على قلب سيد المرسلين الذى قال الله عنه : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥)﴾ [الحاقة]

إذن : حُفظ القرآن علْماً فى اللوح المحفوظ ، وحُفظ فى أمانة مَنْ نزل به من السماء ، وحُفظ فى مَنْ استقبله وهو النبى ﷺ ، فلا حجةَ لنا بعد أن جمع الحق - سبحانه وتعالى - للقرآن كُلَّ ألوان الحفظ .

---

(١) قوله : ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨)﴾ [الواقعة] . قيل : هو اللوح المحفوظ . وقيل : هو القرآن يصونه المؤمن مكتوباً أو يصونه فى قلبه محفوظاً . [القاموس القويم ٢/١٧٦].

لذلك كان ولا بُدَّ حين يُنزِل الله القرآن على رسوله أن يقول له : ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴿١١٤﴾ ﴾ [طه] فليست هناك حقيقة بعد هذا أبداً ، وليس هناك شيء ثابت ثبوتَ الحق سبحانه وتعالى .

ثم يقول تعالى ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ .. ﴿١١٤﴾ ﴾ [طه] وهذه مُقدِّمات ليطمئن رسول الله على حفْظ القرآن ؛ لأنه ﷺ كان ينزل عليه الوحي ، فيحاول إعادته كلمة كلمة . فإذا قال الوحي مثلاً : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ .. ﴿١﴾ ﴾ [الجن] فيأخذ الرسول في تكرارها في سرِّه ويُردِّدها خلف جبريل عليه السلام مخافة أنْ ينساها لشدة حرْصه على القرآن(١) .

فنهاه الله عن هذه العَجلة ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ .. ﴿١١٤﴾ ﴾ [طه] أي : لا تتعجل ، ولا تنشغل بالتكرار والترديد ، فسوف يأتيك نُضْجها حين تكتمل ، فلا تَخْشَ أنْ يفوتك شيءٌ منه طالما أنني تكفَّلْتُ بحفْظه ؛ لذلك يقول له في موضع آخر : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ [الأعلى]

فاطمئن ولا تقلق على هذه المسألة ؛ لأن شغلك بحفظ كلمة قد يُفوِّت عليك أخرى .

والعَجلة أنْ تُخرِج الحدث قبل نُضْجه ، كأن تقطف الثمرة قبل نُضْجها وقبل أوانها ، وعند الأكل تُفَاجأ بأنها لم تَسْتَوِ بعد ، أو تتعجل قَطْفها وهي صغيرة لا تكفي شخصاً واحداً ، ولو تركتها لأوانها لكانت كافية لعدة أشخاص .

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن السدي . قاله السيوطي في الدر المنثور (٦٠٢/٥) . وأورد القرطبي نحو هذا في تفسيره (٤٤٢٥/٦) ، وكذا تفسير ابن كثير (١٦٧/٣) .

والقرآن كلام في مستوى عالٍ من البلاغة ، وليس كلاماً مألوفاً له يسهل عليه حفظه ؛ لذلك كان حريصاً على الحفظ والتثبيت .

وفي آية أخرى يُوضّح الحق سبحانه هذه المسألة : ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾﴾ [القيامة] أي : لما تكتمل الآيات فلكَ أنْ تقرأها كما تحب .

وهذه الظاهرة من معجزات النبي ﷺ ، نبي ينزل عليه عدة أرباع من القرآن ، أو السورة كاملة ، ثم حين يُسرى عنه الوحي يعيدها كما أُنزلتْ عليه ، ولك أن تأتي بأكثر الناس قدرة على الحفظ ، واقرأ عليه لمدة عشر دقائق مثلاً من أي كتاب أو أي كلام ، ثم اطلب منه إعادة ما سمع فلن يستطيع .

أما النبي ﷺ فكان يأمر الكَتَبة بكتابة القرآن ، ثم يمليه عليهم كما سمعه ، لا يُغير منه حرفاً واحداً ، بل ويُملي الآيات في موضعها من السور المختلفة فيقول : « ضعوا هذه في سورة كذا ، وهذه في سورة كذا »[1] .

ولو أن السورة نزلت كاملة مرة واحدة لكان الأمر إلى حدٍّ ما سهلاً ، إنما تنزل الآيات متفرقة ، فإذا ما قرأ ﷺ في الصلاة مثلاً قرأ بسورة واحدة نزلتْ آياتها متفرقة ، هذه نزلت اليوم ، وهذه نزلت بالأمس ، وهكذا ، ومع ذلك يقرؤها مُرتَّبة آية آية .

وقوله تعالى بعدها : ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة] وخاطب

---

(١) أخرج البيهقي في دلائل النبوة (٧/١٥٣) من حديث عثمان بن عفان - رضي الله عنه - أنه قال : إن رسول الله ﷺ كان يأتي عليه الزمان تنزل عليه السور ، ذوات عدد ، فكان إذا نزل عليه الشيء يدعو بعض من كان يكتبه ، فيقول : « ضعوا هذه في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا » . وكذا أخرجه الترمذي في سننه (٥/٢٧٢) ، والحاكم في مستدركه (٢/٢٢١ ، ٣٣٠) .

النبى فى آية أخرى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [النحل] فالبيان من الله تعالى والتبيين من النبى ﷺ .

ومعنى : ﴿ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ .. ﴿١١٤﴾ ﴾ [طه] أى : انتظر حتى يسرى عنك ، لكن كيف يعرف الرسول ذلك ؟ كيف يعرف أن الحالة التى تعتريه عند نزول الوحى قد زالتْ ؟ والصحابة يصفون حال النبى ﷺ عند نزول الوحى عليه فيقولون : كنا نسمع حول رأسه كغطيط النحل ، وكان جبينه يتفصد عرقاً[1] ، ويبلغ منه الجهد مبلغاً ، وإن نزل الوحى وهو على دابة كانت تنخ برسول الله ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴿٥﴾ ﴾ [المزمل]

إذن : هناك آيات مادية تعرض لرسول الله عند نزول الوحى ؛ لأن الوَحْى من ملَك له طبيعته التكوينية التى تختلف وطبيعة النبى البشرية ، فلكى يتم اللقاء بينهما مباشرة لا بُدَّ أنْ يحدث بينهما نوعٌ من التقارب فى الطبيعة ، فإمَّا أن يتحول الملَك من صورته الملائكية إلى صورة بشرية ، أو ينتقل رسول الله من حالته البشرية إلى حالة ملائكية ارتقائية حتى يتلقَّى عن الملك .

لذلك ، كانت تحدث لرسول الله تغييرات كيماوية فى طبيعته ، هذه التغييرات هى التى تجعله يتصببُ عَرَقاً حتى يقول : « زملونى زملونى » أو « دثرونى دثرونى »[2] لما حدث فى تكوينه من تفاعل .

فكان الوحى شاقاً على رسول الله خاصة فى أوله ، فأراد الحق ـ

---

(١) قالت عائشة رضى الله عنها : لقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصَّد عرقاً . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢) كتاب بدء الوحى ، وأحمد فى مسنده (٦/٢٥٧) .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٢) كتاب بدء الوحى من حديث عائشة رضى الله عنها .

سبحانه ـ أنْ يُخفِّف عن رسوله هذه المشقة ، وأنْ يُريحه فترة من نزول الوحى ليريحه من ناحية وليُشوِّقه للوحى من ناحية أخرى ، فقال تعالى : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ (٣)﴾ [الشرح] والوِزْر هو الحِمْل الثقيل الذى كان يحمله رسول الله فى نزول الوحى عليه .

فلما فتر الوحى عن رسول الله شمتَ به الأعداء ، وقالوا : إن ربَّ محمد قد قلاه[1] . سبحان الله ، أفى الجَفْوة تذكرون أنَ لمحمد رباً ؟ ألستم القائلين له : كذاب وساحر ؟ والآن أصبح له رب لأنه قلاه ؟

وما فهم الكفار أن فتور الوحى لحكمة عالية ، أرادها ربُّ محمد ، هى أنْ يرتاح نفسياً من مشقة هذه التغيرات الكيماوية فى تكوينه ، وأنْ تتجدد طاقته ، ويزداد شوقه للقاء جبريل من جديد ، والشَّوْق إلى الشىء يُهوِّن الصعاب فى سبيله . كما يسير المحب إلى حبيبه ، لا تمنعه مشاقّ الطريق .

فردَّ الله على الكفار : ﴿وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥)﴾ [الضحى]

فنفى عن رسوله ما قاله الكفار ، ثم عدَّل عبارتهم : إن ربَّ محمد قد قلاه فقال : ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣)﴾ [الضحى] هكذا بكاف الخطاب ؛ لأن التوديع قد يكون للحبيب .

أمَّا فى قوله : ﴿وَمَا قَلَىٰ (٣)﴾ [الضحى] فلم يأت هنا بكاف الخطاب حتى مع النفى ، فلم يقُلْ (وما قلاك) ؛ لأنَ النفى مع ضمير المخاطب يُشْعِر بإمكانية حدوث الكُره لرسول الله .

(١) عن جندب بن عبد الله البجلى أنه قال : أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ ، فقال المشركون : ودع محمداً ربه . أورده ابن كثير فى تفسيره (٥٢٢/٤) .

كما لو قلت : أنا لم أرَ شيخ الأزهر يشـرب الخمر ، أمدحتَ شيخ الأزهر بهذا القول أم ذَمَمْـته ؟ الحقيقة أنك ذممـته ؛ لأنك جعلته مظنة أن يحدث منه ذلك .

فهذا التعبير القـرآنى يعطى لرسول الله منزلته العالية ومكانته عند ربه عز وجل .

لكن ، مـا الحكمة فى أن الحق ـ تبـارك وتعالى ـ أقـسم فى هذه المسـألة بالضحى وبالليل إذا سَجَـى ؟ وما صلتهمـا بموضوع غـياب الوحى عن رسول الله ؟

الله عز وجل يريد بقوله : ﴿ وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) ﴾ [الضحى] أن يرد هؤلاء إلى ظاهرة كونـية مُشـاهدة ومُعْتَـرف بها عند الجميع ، وهـى أن الله خلق النهـار وجعله مَـحـلاً للحـركة والنشـاط والسعى ، وخلق الليل وجعله مَحَلاً للراحة والسكون ، فيرتاح الإنسان فى الليل ليعاود نشاطه فى الصباح من جديد .

وهكذا أمر الوحى مع رســول الله ﷺ ، فلما أجهده الوحى احـتاج إلى وقت يرتاح فيه ، لا لتنـتهى المسألة بلا عودة ، بل ليُـجدِّد نشاط النبى ، ويُشوِّقه للوحى من جديد ؛ لذلك بشَّره بقوله : ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) ﴾ [الضحى] أى : انتظر يا محمد ، فسوف يأتيك خير كثير .

فالحق سـبحـانه يُرجعهم إلـى ظواهر الكون ، وإلى الطبيـعة التى يعيشون عليها ، فـأنتم ترتاحون من عَناء النهار بسكون الليل ، فلماذا تنكرون على محمد أن يرتاح من عناء الوحى ومـشقته ؟ وهل راحتكم فى سكون الليل تعنى دوام الليل وعدم عودة النهار ؟

وقوله تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤) ﴾ [طه] هذا توجيه للنبى ﷺ للاستزادة من العلم ، فما دُمْتَ أنت يا رب الحافظ فزدْنى منه ، ذلك لأن رسول الله سيحتاج إلى علم تقوم عليه حركة الحياة من لَدُنْه إلى أن تقوم الساعة ، علْمٌ يشمل الأزمنة والأمكنة ، فلا بُدَّ له أنْ يُعَدَّ الإعدادَ اللازم لهذه المهمة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا (١١٥) ﴾

كان الحق - تبارك وتعالى - يُعزِّى رسوله ﷺ ويُخفِّف عنه ما يعانيه من كفر القوم وعنادهم بقوله له : اقبلهم على علاَّتهم ، فهُمْ أولاد آدم ، والعصيان أمر وارد فيهم ، وسبق أن عهدنا إلى أبيهم فنسى ، فإذا نسى هؤلاء فاقبل منهم فهم أولاد « نسَّاى » .

لذلك ، إذا أوصيتَ أحداً بعمل شىء فلم يَقُمْ به ، فلا تغضب ، وارجع الأمر إلى هذه المسألة ، والتمس له عُذْراً .

وقوله : ﴿ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ .. (١١٥) ﴾ [طه] أى : أمرنا ووصَّيْنا ووعظنا ، وقلنا كل شىء .

﴿ مِن قَبْلُ .. (١١٥) ﴾ [طه] هذه الكلمة لها دَوْر فى القرآن ، وقد حسمتْ لنا مواقف عدة ، منها قوله هنا عن آدم والمراد : خُذْ لهم أسْوة من أبيهم الذى كلَّفه الله مباشرة ، ليس بواسطة رسول ، وكلَّفه بأمر واحد ، ثم نهاه أيضاً عن أمر واحد : كُل من كُلِّ الجنة إلا هذه الشجرة ، هذا هو التكليف ، ومع ذلك نسى آدم ما أُمِر به .

إذن : حينما يأتي التكليف بواسطة رسول ، وبأمور كثيرة ، فمَنْ نسى من ولد آدم فيجب أنْ نعذره ونلتمس له عذراً ، ولكثرة النسيان فى ذرية آدم قال تعالى : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ .. (٨٢) ﴾ [طه] بالمبالغة ؛ لأن الجميع عُرْضَة للنسيان وعُرْضة للخطأ ، فالأمر - إذن - يحتاج إلى مغفرة كثيرة .

كذلك جاءتْ (من قبل) فى قوله تعالى : ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ .. (٩١) ﴾ [البقرة]

فكان لها دور ومَغْزى ، فلو قال الحق سبحانه : فَلِمَ تقتلون أنبياء الله ؟ فحسْب ، فربما جرَّأهم على الاعتداء على رسول الله أنْ يقتلوه ، أو يفهم منها رسول الله أنه عُرْضة للقتل كما حدث مع سابقيه من الأنبياء . لذلك قيَّدها الحق - تبارك وتعالى - وجعلها شيئاً من الماضى الذى لن يكون ، فهذا شيء حدث من قبل ، وليس هذا زمانه .

وقوله : ﴿ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) ﴾ [طه] أى : نسى العَهْد ، هذه واحدة . ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) ﴾ [طه] ليس عنده عزيمة قوية تُعينه على المضىِّ والثبات فى الأمر .

فالحق - تبارك وتعالى - يريد أن يعطينا فكرة بأنه سبحانه حين يأمر بأمْر فيه نفع لك تتهافت عليه ، أمّا إذا أمر بشيء يُقيِّد شهواتك تأبَّيْتَ وخالفتَ ، ومن هنا احتاج التكليف إلى عزيمة قوية تعينك على المضىِّ فيه والثبات عليه ، فإنْ أقبلتَ على الأمر الذى يخالف شهوتك نظرتَ فيه وتأملتَ : كيف أنه يعطيك شهوة عاجلة زائلة لكن يعقبها ذلٌّ آجل مستمر ، فالعَزْم هنا ألاَّ تغريك الشهوة .

ألا ترى أن الله تعالى سمَّى الرسل أصحاب الدعوات والرسالات الهامة فى تاريخ البشرية ﴿ أُولُوا الْعَزْمِ .. (٣٥) ﴾ [الأحقاف] لأنهم

سيتحملون مشاقَ ومهامَ صعبة تحتاج إلى ثبات وصبر على التكاليف.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ .. (٦٣) ﴾ [البقرة] أى : عزيمة تدفع إلى الطاعات ، وتمنع من المعاصى .

ومسألة نسيان العبد للمنهيات التى يترتب عليها عقاب وعذاب أثارتْ عند الناس مشكلة فى القضاء والقدر ، فتسمع البعض يقول : ما دام أن الله تعالى كتب علىَّ هذا الفعل فلِمَ يعاقبنى عليه ؟

ونعجب لهذه المقولة ، ولماذا لم تَقُلْ أيضاً : لماذا يثيبنى على هذا الفعل ، ما دام قد كتبه علىَّ ؟ لماذا توقفتَ فى الأولى و(بلعْتَ) الأخرى ، بالطبع ؛ لأن الأولى ليست فى صالحك . إذن ، عليك أن تتعامل مع ربك معاملة واحدة ، وتقيس الأمور بمقياس واحد .

والعهد الذى أخذه الله على آدم أنْ يأكل رَغَداً من كل نعيم الجنة كما يشاء إلا شجرة واحدة حذَّره من مجرد الاقتراب منها هو وزوجه : ﴿ وَلا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) ﴾ [البقرة]

وهذه المسألة تلفتنا إلى أن المحللات كثيرة لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى أمّا المحرمات فقليلة معدودة محصورة ؛ لذلك حينما يُحدِّثنا الحق سبحانه عن التكليف يقول : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ .. (١٥١) ﴾ [الأنعام] فالمحرَّمات هى التى يمكن حصرها ، أما المحللات فخارجة عن نطاق الحَصْر .

ونلحظ أن الله تعالى حينما يُحذِّرنا من المحرمات لا يُحذِّرنا من مباشرتها ، بلْ من مجرد الاقتراب منها ﴿ وَلا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ .. (٣٥) ﴾ [البقرة] ولَم يقُلْ : لا تأكلا منها ؛ ليظل الإنسان بعيداً عن منطقة الخطر ومظنّة الفعْل .

وحينما يُحدِّثنا ربُّنا عن حدوده التى حدَّهَا لنا يقول فى الحدّ

المحلَّ : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا .. (٢٢٩) ﴾ [البقرة] وفى الحدِّ المحرَّم يقول : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا .. (١٨٧) ﴾ [البقرة] ذلك لأن مَنْ حامَ حول الحِمَى يوشك أنْ يقع فيه .

وقد كان للعلماء كلام طويل حول ما نسيه آدم عليه السلام ، فمنهم مَنْ قال : نسى (كُل من هذه ولا تقرب هذه) ، وعلى هذا الرأى لم يَنْسَ آدم لأنه نفَّذ الأمر فأكل ممَّا أحله الله له ، أما كونه أكل من الشجرة التى نهاه الله عنها فليس فى هذه أيضاً نسيان ؛ لأن إبليس ذكّره بهذا النهى فقال : ﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) ﴾ [الأعراف]

فحينما أكل آدم من الشجرة لم يكُنْ ناسياً ما نهاه الله عنه . إذن : ما المقصود بالنسيان هنا ؟

المقصود أن آدم ـ عليه السلام ـ نسى ما أخبره الله به من عداوة إبليس ـ لعنه الله ـ حين قال له : ﴿ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١١٧) ﴾ [طه]

والفكر البشرى لا بُدَّ أن تفوتَهُ بعض المسائل ، ولو كان عند الإنسان يقظة وحَذَر ما انطلى عليه تغفيل إبليس ، فتراه يُذكِّر آدمَ بالنهى ولم يَدَعْهُ فى غفلته ثم يحاول إقناعه : إنْ أكلتُما من هذه الشجرة فسوف تكونَا ملكين ، أو تكونَا من الخالدين .

وما دُمْتَ أنت يا إبليس بهذا الذكاء ، فلماذا لم تأكل أنت من الشجرة وتكون ملكاً أو تكون من الخالدين ؟ لماذا تضاءلت فصرْتَ أرنباً تقول : ﴿ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) ﴾ [الأعراف]

إذن : هذا نموذج من تغفيل إبليس لآدم وذريته من بعده ، يلفتنا الله تعالى إليه يقول : تيقظوا واحذروا ، فعداوته لكم مُسْبقة منذ سجد الجميع لآدم تكريماً ، وأبَى هو أن يسجد .